

يعقوف حسدائي*

موجز تاريخ الفساد*

يجب عدم الانتظار حتى نهاية الفيلم لنعرف أننا شاهدناه من قبل. فالمجتمع الإسرائيلي، المطمئن والواثق مرة أخرى، كان على علم بالصواريخ التي يتلقاها حزب الله، والتحصينات والمواقع التي بناها على خط الحدود. وكما حدث في حينه، سنة 1973، كان ثمة توقعات بنهاية سريعة للحرب، بهجوم ساحق يقوم به سلاح الجو هذه المرة. لكن التوقعات خابت. وكما في حينه، حاول الجيش الإسرائيلي في اللحظة الأخيرة إصلاح الضرر.

نتائج الجولة الحالية تذكر أيضاً بالفيلم السابق. إن إنجازات حزب الله في بداية الحرب لن يمحوها النسيان، وستكون مصدراً للتحفيز والأمل لجميع أعدائنا من حولنا، كما كانت حرب يوم الغفران. زد على ذلك أن إرسال ضابط برتبة لواء ممثلاً لرئيس هيئة الأركان العامة إلى الجبهة، وزعم رئيس الحكومة أن الجيش الإسرائيلي لم يعرض عليه خطأً محددة، يذكران بفصل من الفيلم القديم، وتطور ذلك وقتها إلى حرب جنرالات وتهرب للقيادة بالجملة من تحمل المسؤولية. من جميع هذه النواحي، الفيلم الجديد يقتفي أثر سابقه، ويبدو أن لا مكان لتغيير أساسات السيناريو. ولم يبق إلا الفصل الأخير ذو الأهمية الفائقة، والذي بأيدينا أن نقرر ما إذا كنا سنكرره، أو أن نحول التاريخ في اتجاه آخر.

في تشرين الأول/أكتوبر 1973، مع انتهاء الحرب، كان المجتمع الإسرائيلي يعيش أزمة ثقة عميقة. انهمت القيادة بأنها لم تتوقع الخطر، ولم تحذر الشعب، ولم تتحمل مسؤولياتها، واتهمت قيادة الجيش بأنها لم تستعد كما يجب لجهة الخطط والتجهيزات. كان ثمة إحساس بأننا ارتكبنا أخطاءً وزلات، وبأن القيادة فشلت، وبأنه يجب إجراء تغييرات سياسية عميقة، وتفحص داخلي في الجيش الإسرائيلي. في المقابل، وقفت المؤسسة السياسية، التي حاولت الدفاع عن مواقفها ومكانتها بوسيلتين: الأولى هي التسليم بوجود ثغرات ومذنبين، والقول إن الدروس تم استخلاصها والمذنبين تم عزلهم، وإن هذا في الواقع هو النصر الكبير في تاريخنا، ويمكن العودة إلى الأعمال كالمعتاد؛ الوسيلة الثانية تمثلت في جهود لضمان الوفرة والرفاه الاقتصادي، من أجل تسكين سورة الغضب والمرارة التي خلفتها الحرب.

في مواجهة تجدد المؤسسة السياسية، بدت حركة الاحتجاج عقيمة وعديمة المعنى. تظاهرة سياسية عاد بعدها المتظاهرون إلى بيوتهم، وحركة سياسية - "داش" - اضمحلت خلال عامين [من تأسيسها]. تجدد الاحتجاج مراراً في الأعوام اللاحقة، لكن المؤسسة نجحت دائماً في هزيمته بسهولة. وهكذا تبلور نمط نمونجي [لسلوك] النظام السياسي والقيادة في إسرائيل: يجب ضمان الوفرة والرفاه، والتعبير دائماً عن ثقة بالنفس وتفاؤل. وعلى الرغم من تبدلات الحكم والقادة، فقد ظل هذا النمط مستقراً وثابتاً حتى عندما تلبدت السماء بغيوم الخطر، وأصبح من الضرورة دعوة الشعب إلى بذل الجهود والتضحية، أو التحذير من الخطر الآتي من الشمال والاستعداد لمواجهة.

كان للحرب [1973] ولأزمة الثقة التي ولدتها نتيجة أخرى: في الجيل الذي عاد من الحرب وسأل: "بماذا أخطأنا، وكيف ضللنا الطريق؟"، قامت حركتا احتجاج: "غوش إيمونيم"، و"السلام الآن". ووضعت هاتان الحركتان الأساس للتقاطب الذي شطر المجتمع الإسرائيلي طوال جيل كامل. وعلى الرغم من التناقض العميق بينهما، فقد كان لكلا المعسكرين قاسمان مشتركين واضحيان: الأول، لم يعد تفحص المنظومة السياسية والقيادة يتم وفقاً لمستوى القادة وكفاءاتهم، وإنما بحسب مساهمتهم في الأيديولوجيا. قد يكون القائد فاسداً أو مقصراً على المستوى الشخصي - المهم أنه موالٍ لنا. والثاني، كان ثمة مصلحة لكلا المعسكرين في الزعم أن قوة الجيش الإسرائيلي غير محدودة: لليمين، كي يقنع الناس بأن في إمكاننا أن نسيطر على المناطق [المحتلة] إلى الأبد، وكل المطلوب هو "أن نفسح المجال للجيش كي ينتصر"، ولليسار، كي يقيم البرهان على أن في إمكان الجيش الإسرائيلي أن يدافع عن أي حدود تنسحب دولة إسرائيل إليها.

خلال الوقت الذي مر منذ ذلك الحين، تلقى المجتمع الإسرائيلي عدداً من الإنذارات بشأن وضع قيادته ومستوى جيشه. اثنان من رؤساء الحكومات لم ينهيا حتى ولاية واحدة، وفي حرب لبنان تكرر ظهور أوجه الخلل، وفي الانتفاضة الأولى فوجئنا مرة ثانية. لكن جميع إشارات الخطر أهملت من جانب المجتمع الشيعان والمطمئن، والمتأجج بالجدال الأيديولوجي فيما يتعلق بالمناطق والسلام. وفي نهاية المطاف، على الرغم من أن تلك الحرب كشفت نقاط الضعف الخطرة، فإنه لم يبذل أي جهد حقيقي من أجل التغيير والإصلاح.

منذ ذلك الحين، تواصلت مسارات الانحدار في مستوى القيادة. واستمرت المؤسسة السياسية تفقد ثقة الشعب بها. وبدلاً من القادة، بدأ رجال علاقات عامة وإعلاميون يسيطرون على الدولة. وظل إصلاح الجيش في يد الجيش نفسه، وحتى إلى هناك تسلفت فقاعات الفساد السياسي. وهكذا وصلنا بعد 33 عاماً إلى طبعة ثانية من تلك الحرب، ومرة أخرى دفعت الجبهة الداخلية ثمن الأخطاء.

لكن حينها فشل القادة والضباط العسكريون في مواجهة جيوش كبيرة؛ وهذه المرة، في مواجهة منظمة إرهابية صغيرة، ولذا فإن الفشل خطر أضعافاً مضاعفة.

التظاهرات لا تكفي

لسنا إمبراطورية. نحن أمة صغيرة تقاتل من أجل بقائها. وكي يبقى أحياء في عالم معاد، نحن بحاجة إلى قيادة حكيمة وجيش فعال وقوي. قبل 33 عاماً، تلقينا إنذاراً مجبولاً بالدم والنار. ولأن هذا الإنذار تم إهماله وإنكاره والتغاضي عنه، تلقينا إنذاراً آخر، ربما يكون الأخير. وفي مقابل الغضب والمرارة اللذين تثيرهما تطورات الحرب، يقف اليأس الذي ولدته محاولات احتجاج سابقة باءت بالفشل. وهكذا سيتذكر المقاتلون وجنود الاحتياط لدى عودتهم من هذه الحرب آباءهم الذين عادوا آنذاك، وسيتعلمون من أخطائهم. اعتقدوا أنهم سيبدلون غولدا ودايان، وبذلك يشفون المؤسسة السياسية، لكنهم كانوا على خطأ. اعتقدوا أنه يكفي تنظيم تظاهرات مثيرة للإعجاب، وكانوا على خطأ في ذلك أيضاً. يجب بذل جهد دائم ومتواصل لإصلاح أخطاء جيل، والأساس هو أنهم انتقدوا، لكنهم لم يقدموا خطة، ولذلك كان من السهل أن يبيعوهم أدوية الدجالين، مثل تغيير نظام الانتخابات. هم اشتروا، والسياسيون ابتسموا.

دولة إسرائيل بحاجة إلى إصلاح سياسي واجتماعي وثقافي عميق إذا كانت تريد أن تستمر في البقاء. ويجب أن يقوم هذا الإصلاح على قاعدة عدد من المبادئ تدمج بين التعليم والمجتمع والسياسة. وينبغي للبنية الاجتماعية – السياسية الجديدة أن تعزز احترام المواطن لنفسه وإحساس السياسي بأنه خادم الجمهور لا سيده. ومن أجل ذلك، سيكون من الواجب:

- تجريد السياسيين من قوتهم الاقتصادية المفسدة، ونقلها إلى مجموعات حرة من المواطنين؛
- تعهد مفاهيم الواجب والمسؤولية والصلاحية، في عملية التعليم، ووضع قواعد لتطبيقها في الحياة السياسية؛
- وضع بنية سياسية تفصل بين المؤسسات التي تشغل بالإدارة الجارية للدولة، والمؤسسات المسؤولة عن وضع السياسات للمدى الطويل؛
- وضع معايير تلزم بالاستقامة والنزاهة في الحياة السياسية، أكثر تشدداً من القانون الجنائي؛
- إعادة تعريف استقلالية وسائل الإعلام، ووقف تبعيتها لأصحاب الملايين والسياسيين، وإلزامها بمستوى أعلى من الحكمة والجديّة.

هذه ليست أحلام. هذه موضوعات يتوقف مستقبلنا ومستقبل أولادنا على إصلاحها. لا شك في أن مهندسي هذه الحرب يجب أن يرحلوا، لكن لا تخطئوا: لا يوجد في المؤسسة السياسية بدلاء ملائمون. لذلك يجب إجراء انتخابات جديدة خلال نصف عام بعد انتهائها. أولئك الذين قادوا وأخطأوا وزلوا وأفسدوا وأفسدوا، من اليمين ومن اليسار، يجب أن ينزلوا عن المنصة. في هذه الانتخابات يجب أن يقوم جيل جديد، يأتي من خارج الساحة السياسية الحالية، وتكون له خطة مبلورة وواضحة. ■

(*) عقيد (في الاحتياط)، مؤرخ ورجل قانون.

(**) المصدر: مترجم عن العبرية من موقع "يديعوت أحرونوت" (2006/8/16) في الإنترنت:

www.ynet.co.il

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي

التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:

http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx